غضب الرّب و طلب الشفاعة من الأنبياء و قولهم: «نفسى، نفسى» و رجوعهم بالاضطرار.

أقول: و يحتمل وجهاً آخر و هو أن يكون المراد ممّا بين أيديهم صور المعلومات الجزئية الحسيّة أو البديهيّات، و ما خلفهم صور المعقولات الكلية أو النظريّات، لتقدّم الأولى و تأخّر الثانية بالقياس الى الانسان و عدم حصول الثانية له الّا بوسيلة سبق الأولى ـ كما قيل «مَن فقد حساً فقد علماً». [1]

و حاصله أنّه تعالى عالم بجميع الأشياء ـ جزئيّة كانت أو كلية ـ و من جملتها الشافع و المشفوع له، و الجهة التى بها يستحق الشفعاء للشفاعة، و المشفوع لهم للاستشفاع ـ دون غيره، حتى أنّ الشفعاء لايعلمون من أنفسهم أنّ لهم من الطاعة مايستحقون هذه الدرجة الرفيعة و المنزلة العظيمة عند الله سبحانه، و لايعلمون أنّه سبحانه هل صيّرهم مأذونين فى الشفاعة أم لا؟ بل يستحقون المقت و الزجر، فانّ العزّة لله جميعاً، والممكن بحسب ذاته متخمّر من الكدورة و الظلمة المنشأة عن ماهيّة الامكانيّة، و إنّما المنوّر لها و المخرج إيّاها من العدم و الابهام الى الوجود و التحصيل، و من القصور و النقصان الى التمام و التكميل هو الحق تعالى القيّوم بذاته، الذى يعطى نور الوجود لـمّا يشاء، كلّ بحسبه و يصطفى من الملائكة و البشر رسلا و أنبياء و يكسيهم كسوة العزّة و البهاء و القدرة و الغنى، و منزلة الهداية و الشفاعة فى الأولى و العقبى.

المقالة الثامنة

فى قوله سبحانه: ﴿و لا يحيطون بشىء من علمه إلّا بما شاء﴾

و فيه اشارات:

[الاشارة] الأولى

[جميع الموجودات حاضرة عنده تعالى]

قال الرازى فى الكبير[2]: «إنّ المراد من «العلم» هنا المعلوم كالخلق بمعنى المخلوق، و فى الأدعية: «اللّهم اغفرلنا علمك فينا»[3] أى: معلومك. أو لاترى أنّه إذا ظهرت آية عظيمة قيل: «هذه قدرة الله» أى مقدوره، و المعنى: أنّ أحداً لايحيط بمعلومات الله تعالى».

---

١. تفسير ابن عربى، ج١، ص٥٦

٢. تفسير الرازى، ج٧، ص١١

٣. فتح البارى، ج١١، ص٤٧٤؛ حقائق التأويل، ص٩٦؛ التبيان، ج٢، ص٣٠٩

أقول : لمّا علم فى القرينة السابقـة أنّ جميع الموجودات ـ سواء كانت كلية أو جزئية ، معقولة أو محسوسة ، صوراً علميّة أو محالا ادراكيّة ، أو آلات و مشاعر ـ حاضرة عنده تعالى بحيث يكون نفس وجودها فى أنفسها نفس علميّتها و معلوميّتها له تعالى من غير تضاعيف الصور الادراكيّة ، فجميع الموجودات يكون معلوماً ـ أى صوراً علميّة و معلومات بأنفسها لابصورة مستأنفة أخرى ـ فاذا كان الأمر كذلك تكون العلوم كلّها معلوماً له تعالى ، و المعلومات كلّها معلومات و علوماً له تعالى معاً ، فكلّ ما يعلمه أحد منّا يكون بعضاً من علومه تعالى ـ سواء كانت علوماً لنا أو معلومات ـ .

فحينئذ لايحتاج الى ارتكاب المجاز ، لكن لمّا كان العلم عند هذا القائل مجرّد الاضافة احتاج الى ذلك ، لأنّ الاحاطة لاتتعلّق بالاضافة و لا التبعيض يناسبها .

الاشارة الثانية

[تفسير قوله تعالى : «...إلّا من ارتضى من رسول»]

إنّه لايعلمون الغيب إلّا من جهة اطلاعه تعالى بعض ملائكته أو أنبيائه على بعض الغيب ، كما قال : ﴿عالم الغيب فلايظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول﴾(الجن (٧٢) : ٢٧) .

الاشارة الثالثة

[علمه تعالى بذوات المجعولات علماً فعليّاً ، و هو المشيّة الالهيّة]

إنّه لمّاثبت أنّ لعلمه تعالى مراتب بعضها متقدّم على بعض و علّة له ، و بعضها متأخّر عنه و معلول له ، و المتأخّرات عين ذوات الأشياء ، فيكون علمه تعالى بذوات المجعولات التى هى من مراتب علمه بوجه علماً فعليّاً ، و هو المشيّة الالهيّة أيضاً ، لأنّ علمه الذى هو فى مرتبة ذاته عين ارادته التى هى فى تلك المرتبة بالذات و يعبّر عنها بالمشيّة الذاتيّة ، و كذا كلّ مرتبة من مراتب علمه عين ارادته فى تلك المرتبة ، إذ مراتب الارادة على وزان ما علمت فى مراتب العلم ، فلامحالة تكون علوم غيره معلّلة عن مشيّته الأصليّة فلذا قال : ﴿و لايحيطون بشىء من علمه إلّا بماشاء﴾أى بسبب مشيّته ؛ لأنّ «الباء» سببيّة و «ما» مصدريّة ، لا أنّها صلة «يحيطون» ـ كما يتبادر الى الأذهان أوّلا ، و إن كان له وجه أيضاً ، لأنّ ما ذكرناه ألطف و أربط بما سبق و أليق بكلام الحق ، لدلالته على أنّ مشيّته سبب لعلومهم ، لا أنّ متعلّقها متعلّق علومهم .

الاشارة الرابعة
[فى الجعل البسيط]

إنّ المناسبة بين الشىء و المشيّة ممّا تحقق مذهب القائلين بالجعل البسيط بمعنى أنّ الجاعل بهويّته و شيئيّته علة لهويّته المجعوليّة و شيئيته و الآية مشعرة بذلک لاشعاره بأنّه تعالى بمشيّته التى هى عين ذاته و عين علمه بذاته، يفيد شيئيّة علمه الذى هو عين معلومه، فتكون ذاته مشىء الأشياء و مذوّت الذوات و محقّق الحقائق ـ كما عليه الرواقيون من الحكماء ـ بل ذات الذوات و حقيقة الحقائق ـ كما عليه المكاشفون الواصلون من العرفاء.

الاشارة الخامسة
[ضمير الجمع فى قوله تعالى: ﴿ولايحيطون﴾ راجع الى أهل المحبّة والولاية]

أن يكون ضمير الجمع فى ﴿و لايحيطون﴾ راجعاً الى أهل المحبة و الولاية، الواصلين الى مقام الاستغراق و المشاهدة، فيشاهدونه تعالى بالمشاهدة العقليّة و يشاهدون الأشياء بنور ذاته، فيكون الحق لهم سمعاً و بصراً كما وقع فى الحديث المشهور، فالمعنى: لايحيطون بشىء من علمه إلّا بمشيّته التى هى ذاته، فبذاته يعلمون الأشياء و به يسمعون و به يبصرون، كما أنّ به يقدرون على شىء ممّا كسبوا.

و ذلک لفنائهم عن هويّاتهم و قصر نظرهم عنها الى ذاته و تخلّقهم بصفاته على ما يعلمه الراسخون فى العلم و المعرفة من غير لزوم شىء من المحالات كصيرورة صفاته تعالى ـ التى هى عين ذاته ـ صفات العبد، أو حلول ذاته فى ذات العبد ـ كما توهمّه المحجوبون عن نسبة القيّومية التى لايشابهها شىء من النسب، لأنّها ليست بالحاليّة و المحلية، و لا الاقتران و المزائلة، و لا الاتحاد و المغايرة، و لا المماسّة و المباينة و لا الملاصقة و المحاذات، و لا المواصلة أو المفاصلة، بل هى نسبة مجهولة الكنه يعبّر عنها بأمثلة جزئيّة مقربة من وجوه و مبعدة من وجوه لمن يكن من أهل المشاهدة ـ فضلا عن الذين لايكونون من أهل المشافهة كأهل الوقت، حيث ليسوا ممّن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد، فليسوا من الواصلين للعين، و لا من السامعين للأثر.